

المجاز عند القزويني وأبعاده التداولية

ذ. زوليخة قادة

الملخص:

هذا البحث يتناول العلاقات الممكنة الموجودة بين حقلين معرفيين مهمين هما: حقل البلاغة العربية والتداوليات، ويركز على إبراز نقط الالتقاء التي تثبت الحياة الممتدة للتراث العربي ممثلاً في البلاغة.

Abstract :

This research is about the relation between pragmatics and the arabic rhetoric, because There is no doubt that the arabic rhetoric contains the concepts of what can be invested in achiveing persuasion, it is important to employ these methods rhetorical purpose in the service of improving that the arabic rhetoric is steel alive .

This is a new vision to preserving the arabic language.

مدخل:

كانت اللغة ولأزالت الشغل الشاغل للمفكرين والفلاسفة واللغويين على تعدد مشاربهم وتخصصاتهم، ولأنها السمة المميزة للإنسان، فقد سعى البلاغيون والتداوليون والفلاسفة إلى دراستها، والكشف عن أهم ما يحقق غايتها ألا وهو التواصل.¹

درست اللغة إذن من وجهات نظر متعددة نقدية وبلاغية تألفت في نقط واختلفت في أخرى، ولكن الجامع بينها هو الوقوف باندهاش أمام آلية "اللغة".

¹ - التواصل ليس إلا بعدا واحدا من أبعاد اللغة أو وظائفها والتركيز عليه نابع من محوريتها في الدرس التداولي "وإذا ادعينا أن اللغة أداة تواصل فليس بصيغة الإطلاق، بل ينبغي أن نتصور التواصل والحجاج والتبليغ وسائل خارجية تحرك الملكة الباطنة وتتيح لها تشكيلات متنوعة وظهورا بمظاهر شتى" د. عبد الرحمن بودرع. النص الذي نحيا به. منشورات جامعة عبد المالك السعدي. الطبعة الأولى. سنة النشر: 2018. ص: 25.

وقد وقع اختياري على موضوع "الأبعاد التداولية للدرس البلاغي"، وحتى لا يكون حديثي نظريا اخترت العمل على كتاب "التلخيص" للخطيب القزويني، خاصة باب علم البيان حتى أثبت صلة الوصل الكبيرة التي كان يعقدها البلاغيون بين فهم الآليات البلاغية والأبعاد التأويلية لها التي تتجاوز البعد الجمالي. والبحث في علاقة البلاغة بالتداوليات ليس بكرة، ولكنه مع ذلك مازال موضوعا يحتاج إلى كتابات وبحوث كثيرة نظرا لسعة تراثنا اللغوي وغناه.

وقد أكد الكثير من الدارسين العلاقة الوطيدة بين البلاغة والتداوليات، وضرورة إحيائها وإعادة الشرعية لها، يقول د. محمد العمري "ونحن مطالبون اليوم بإعادة الشرعية للدرس البلاغي، انطلاقا من المفهوم النسقي لها، الذي يسعى إلى جعل البلاغة علما أعلى، يشمل التخيل والحجاج، ويستوعب المفهومين معا، من خلال المنطقة التي يتقاطعان فيها، ويوسع التقاطع إلى أقصى حد ممكن، فقد حدث خلال التاريخ أن تقلص البعد الفلسفي التداولي للبلاغة، وتوسع البعد الأسلوبي حتى صار الموضوع الوحيد لها، فكانت نهضة البلاغة حديثا منصبة على استرجاع البعد المفقود في التجاذب بين المجال الأدبي حيث يهيمن التخيل والمجال الفلسفي المنطقي من جهة، واللساني التداولي من جهة ثانية"².

إذن فالعلاقة بين البلاغة واللسانيات عامة واللسانيات التداولية خاصة والتأويل أيضا، هي علاقة تفاعلية مستمرة، وهذا ما دفع الكثير من الدارسين إلى رفض حصر البلاغة في مفهومها الضيق . بديع ومعاني وبيان . وأكدوا تعدد روافد البلاغة العربية التداولية والحجاجية والأسلوبية³.

وقد قصرت بحثي هذا على مبحث المجاز ببيان بعض عناصره التأويلية التداولية التي تثبت أن البلاغة العربية القديمة ارتبطت بمفاهيم تأويلية.

* المجاز وعلاقته بالمتكلم والمتلقي:

² . البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول . محمد العمري . س: 2005 . دار إفريقيا الشرق.

³ . من هؤلاء الدارسين محمد العمري الذي سعى إلى التأسيس لمشروع علي ضخم الهدف منه إعادة الفريدة والتميز للبلاغة العربية . ينظر مثلا في كتابه: البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول . البلاغة العامة والبلاغات المعجمة.

نظرا للبعد الاستعمالي للغة، باعتبار أن الوظيفة الأولى هي التواصل إلى جانب وظائف أخرى بطبيعة الحال، ولأن البلاغة العربية تدرس اللغة وتبحث جاهدة عن أهم ما يجعل من الوظيفة التواصلية لغة متحققة فيما يصدر عن المتكلم من كلام وخطاب، كل هذا دفع بعض اللغويين إلى المقابلة بين مصطلح بلاغة قديما ومصطلح الاتصال حديثا، فتمام حسان مثلا جعل البلاغة فرعا من فروع الإبلاغ أو التوصيل نظرا لاعتمادها على أهم عناصر التخاطب التي تتحدد في المتكلم/ الكاتب والنص/ العبارة والقارئ/ المخاطب.⁴ وقد جاء كتابا القزويني "التلخيص" و"الإيضاح" حافلين بمجموعة من الإشارات التي تدل على هذا البعد التداولي الحاضر في البلاغة العربية، أولها التركيز على كلمتي الاستعمال والتخاطب، فكلمة الاستعمال تدل على وعي القزويني بالبعد التداولي للبلاغة العربية، فهذه الأخيرة لا تنحصر عنده في إدراك المؤلف لطرق التأليف فقط، وإنما في قدرته على التواصل مع المتكلم والتأثير فيه وإمتاعه وإقناعه أيضا.

ويتأكد هذا البعد بالتركيز على كلمة التخاطب، التي جاءت على زنة التفاعل، فالتخاطب الذي يحضر في تعريف القزويني للحقيقة والمجاز في قوله: "الحقيقة الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح التخاطب" وقوله: "المجاز ما استعمل فيما لم يكن موضوعا له في اصطلاح به التخاطب"⁵. والتخاطب كما هو معلوم يتطلب مخاطبا ومخاطبا يشتركان في لغة تواصل ما، وهو ما يتأكد بقول القزويني: الكلمة قبل الاستعمال لا تسمى حقيقة، فكأن الاستعمال هو الذي ينقل الكلام من الوجود إلى العدم، وكأن هذه الكلمة قبل أن تدخل في حيز الاستعمال لا تحمل أية قيمة تذكر.

تستدعي البلاغة أيضا هذين العنصرين التداوليين: المتكلم والمتلقي في تعريف البلاغة الذي أنقله كاملا عن القزويني حين يقول: "وأما بلاغة الكلام فهي: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته.

⁴ ذهبية حمو الحاج. التداولية واستراتيجية التواصل. ص: 208. بتصرف.

⁵ - الخطيب القزويني. الإيضاح. ص: 411.

ومقتضى الحال مختلف، فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التذكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي، وكذا لكل كلمة مع صاحبها مقام⁶.

إن اشتراط القزويني في تعريف البلاغة لشرطي الفصاحة التي تعني الإبانة والوضوح الذين يتحققان من خلال جملة من الشروط التي ترتبط بفصاحة الكلمة والعبارة والمتكلم⁷، ومطابقة مقتضى الحال التي شرحها بتنوع مقامات الكلام التي تستوجب تنوعا في مقالات المتكلم من أهم ما يدل على استبطان القزويني للعلاقة الموجودة بين المتكلم الذي ينبغي أن يبذل وسعه في انتقاء الألفاظ والعبارات والأساليب، والالتزام بالمقاييس اللغوية والبلاغية بغية تحقيق الإبلاغ والتواصل والفهم والإفهام والاستمالة والتأثير في المتلقي.

يحضر هذا التصور أيضا في الحد الذي وضعه القزويني لعلم البيان حين قال عنه: "هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه"⁸.

إن حضور مفهوم الوضوح في حد البيان، يدل على أن مدار هذا العلم كله الوصول إلى عقل وقلب المتلقي، والتأثير فيه.

انطلاقا مما قلته يتضح لنا أن ثنائية المتكلم/ المتلقي كانت توظف التفكير البلاغي عند القزويني، لأنها هي التي لأجلها وضعت البلاغة بكل فنونها، سواء كان الخطاب صادرا عن الله عز وجل لنا، أو صادرا عن متكلم عادي .

المجاز والسياق:

⁶ . الخطيب القزويني. الإيضاح. ص: 86.

⁷ - من عيوب الفصاحة: التنافر بين الحروف. الغرابة. مخالفة القياس. الكراهة في السمع. ضعف التأليف. تنافر الكلمات. التعقيد اللفظي والمعنوي .

⁸ . القزويني. التلخيص. ص: 235/ 236.

تقول الدكتورة مليكة حفان: "ومعنى المقام عند البلاغيين تلك الظروف والملابسات التي تكتنف النص ساعة أدائه، فالنص يتأثر من جهة بالمبدع وبتجاربه وثقافته وما يعتره من أحاسيس ومشاعر. ويتأثر من جهة أخرى بالمتلقي وبالظروف المحيطة به اجتماعية كانت أو سياسية أو ثقافية أو دينية. فالمبدع وهو ينتج النص يدرك أن ثمة متلق سيستقبل هذا الإبداع، وهو ملزم بمراعاة أحواله وظروفه من أجل إقناعه وإفهامه، وتوصيل المعنى المقصود إليه".⁹

وقد فطن القزويني إلى العلاقة بين الكلام وما سمي في الدرس البلاغي بمقتضى الحال، الذي جعل شرطاً لتحقيق حد البلاغة، فمقتضى الحال يدل على أن المتكلم ينبغي أن يخاطب الناس على قدر عقولهم وفهمهم، وهو ما بدا واضحاً وجلياً في قوله: "فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي. وكذا لكل كلمة مع صاحبها مقام"¹⁰.

إن هذه المقامات المختلفة تأتي تبعا لمنازل المخاطبين وأقدارهم الاجتماعية وأحوالهم الفكرية، فلكل حالة أو مقام ما يناسبها من المقال، فلا نطنب في مقام الإيجاز، ولا نطلق في مقام التقييد، ولا ننكر في مقام التعريف، ولا نذكر في مقام يقتضي الحذف، ولا نصل حين يجب أن نفصل، ولا نخاطب الذكي مثلما نخاطب الغبي، كل هذا لتحقيق الإبلاغ والإفهام.

يحضر المقام أيضا في حديث القزويني عن الجامع بين المستعار منه والمستعار له، يقول: "وتنقسم باعتبار الجامع أيضا إلى عامية وخاصة. فالعامية المبتدلة لظهور الجامع فيها، كقولك: رأيت أسدا، ووردت بحرا والخاصية الغريبة التي لا يظفر بها إلا من ارتفع عن طبقة العامة...كقول طفيل الغنوي:

⁹ .مليكة حفان. نظرية التلقي في التراث البلاغي العربي. مجلة الإحياء. الرابطة المحمدية للعلماء.

¹⁰ . الخطيب القزويني. الإيضاح. ص: 86.

وجعلت كوري فوق ناجية يقات شحم سنامها الرجل

وموضع اللطف والغرابة منه أنه استعار الاقتيات لإذهاب الرجل شحم السنام، مع أن الشحم مما يقات منه¹¹.

واللطف في هذه الاستعارة ناتج عن بعد الجامع ودقته، فنحتاج في إدراكه والوقوف عليه إلى كثرة تفكير وإطالة نظر ودقة ملاحظة.

وبالعودة إلى كتب البلاغة الأخرى نجد أن الشاعر استعار هنا الاقتيات وهو تناول الطعام بالفم لإذهاب الرجل شحم السنام؛ وذلك لكثرة احتكاكه به، والجامع بينهما: إزالة الأثر إزالة تدريجية مع طول الوقت، وهذا محقق في الاقتيات وفي إذهاب الرجل شحم السنام، ومرجع الغرابة إلى التفصيل في الجامع حيث لم ينظر إلى مجرد الإزالة، بل إلى حصولها بالتدريج شيئاً فشيئاً.

ومما يحسن الاستعارة في البيت أن الشحم نفسه مما يقات، فالسامع يتخيل أن الاقتيات حقيقة، فإذا ما انتهى إلى آخر البيت (الرجل) وضح له وبرز له الشيء من حيث لم يتوقعه.

ولنتأمل أيضاً قول القزويني "خاصية وعامية مبتذلة" وقوله "لا يظفر بها إلا من ارتفع عن طبقة العامة"، إن هذا يدل على إن الاستعارة أيضاً تلقى بحسب المقامات، ولا تفهم إلا بحسب مقام المتلقي، فالعامي لا يفهم من الاستعارات إلا مبتذلاً، أما أهل الخاصة فيفهمون ما خفي ودق وعلا ذوقاً وإبداعاً.

يظهر أيضاً استعانة القزويني بالسياق الموقفي في تفسيره للشواهد القرآنية، حيث يرجع إلى سياق الآية الكريمة والظروف التي أحاطت بنزولها، ومما يدل على هذا قوله: "أما استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسي فكقوله تعالى: { فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار } طه/ 88 فإن المستعار منه ولد البقرة، والمستعار

¹¹ الخطيب القزويني. الإيضاح. ص: 443.

له الحيوان الذي خلقه الله تعالى من حلي القبط التي سبكتها نار السامري عند إلقاءه فيها التربة التي أخذها من موطئ حيزوم فرس جبرائيل عليه السلام، والجامع لهما الشكل، والجميع حسي¹².

نلاحظ هنا أن القزويني لم يقتصر على الشرح فقط، وإنما عاد إلى سياق الآية فذكر السياق الموقفي لها. ومنه قوله أيضا في حديثه عن المجاز المركب الذي يستند على تشبيه التمثيل " كما كتب الوليد بن يزيد¹³ لما بويع إلى مروان بن محمد¹⁴، وقد بلغه أنه متوقف في البيعة له: أما بعد فإنني أراك تقدم رجلا، وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا، فاعتمد على أيهما شئت، والسلام"¹⁵

إن القزويني لم يكنف بذكر الشاهد فقط والذي يتحدد في: أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، وإنما أشار إلى السياق كله الذي ورد فيه الشاهد والمرتبب بحدث يتحدد في رفض مروان بن محمد مبايعة الوليد بن يزيد، وهو سياق تاريخي يثبت أن الخطيب القزويني مدرك لأهميته في تحصيل الفهم عند المتلقي.

ومما يظهر اهتمام صاحب كتابي "التلخيص" و "الإيضاح" بتعدد مقامات المتلقين، تنوعيه في الشواهد التي استدلت بها في باب المجاز، ولو أن دراستي شملت الكتاب كله لوقفت على نماذج أخرى أكثر تمثيلا، ففي باب المجاز مثلا نجد القزويني يضرب المثل حيناً بالآية القرآنية وحيناً آخر بالشعر العربي أو المثل السائر، وحيناً آخر ينزل إلى أدنى مراتب القول فيستدل بالكلام العادي المتداول كقوله في باب شروط حسن الاستعارة: "وذلك كالنور إذا شبه العلم به والظلمة إذا شبهت الشبهة بها، فإنه لذلك يقول الرجل إذا فهم المسألة: حصل في قلبي نور... ويقول لمن أوقعه في شبهة: أوقعني في ظلمة"¹⁶.

¹² . القزويني. الإيضاح. ص: 447.

¹³ . هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، أبو العباس الأموي الدمشقي وُلِدَ سنة 90هـ، ولم يتمكن أبوه من استخلافه لصغر سنه فعقد لأخيه هشام، وجعل الوليد ولياً للعهد بعد هشام، كانت له ألقاب عدة: فُلِّقَ بالبيطار، ولقب بخليع بني مروان والفاثك، وأمه أم الحجاج بنت محمد الثقفية

¹⁴ .. مروان بن محمد، هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية (72 هـ - 13 ذو الحجة 132 هـ / 23 يوليو 750 م) هو آخر خلفاء بني أمية بالشرق.

¹⁵ . نفس المرجع. ص: 458.

¹⁶ . القزويني. الإيضاح. ص: 473.

يتجلى أيضا اعتماد القزويني على السياق من خلال حديثه عن المثل السائر وخصوصيته، يقول: "وكل هذا يسمى التمثيل على سبيل الاستعارة، وقد يسمى التمثيل مطلقا، ومتى فشا استعماله كذلك سمي مثلا، ولذلك لا تغير الأمثال"¹⁷.

فلنلاحظ هنا أن القزويني يفترض للأخذ بالمثل السائر أمرين حتى تفهم دلالاته ويحمل على الاستعارة التمثيلية، هذان الأمران هما انتشاره وذبوعه بين الناس أي إدراك الناس لحمولته الثقافية ولدلالاته المكثفة، وثانيهما عدم إخضاعه لمعيارية اللغة، لأن الأمثال تكتسب صحتها من خلال العنصر التداولي فيها.

إن الاستعمال هنا أو ما أسماه القزويني بالفشو هو يعطي للمثل قيمة بلاغية وتجعله من الكلام الفصيح المؤثر في المتلقي.

إن التفاوت الحاصل في الشواهد والأمثلة بين الكلام الذي يمثل قمة الفصاحة والبلاغة ممثلا في القرآن الكريم، وما يتبعه من شعر العرب ونثرهم وأمثالهم السائرة، نزولا عند الكلام المعتاد، دال على سعة فهم القزويني وإدراكه لتفاوت مقامات ودرجات المتلقي في استقبال هذه الخطابات ومستوى فهمها.

إن القزويني مدرك أن اللغة ظاهرة اجتماعية، وأن ملاحظة السياق بنوعيه اللغوي وغير اللغوي ضرورة للوقوف على طبيعة النص دلاليا، وأن كل نص كيفما كان نوعه يوجد ضمن حقل تواصل ما يتطلب حضور المنجز والمتقبل والسياقات المختلفة التي تؤسس لنجاح عملية التواصل فيه.

المجاز والمعاني المستلزمة:

من المعلوم أن المجاز يقوم على مفهوم الانزياح، فهو يسهم في توليد استعمالات مختلفة للغة، نظرا لانتقاله من المعنى المباشر الأصلي إلى المعنى غير المباشر المجازي، وهو من أكثر الطرق سموا في توليد المعنى وإنتاجه، لأنه من الخطابات التي تجاوز البعد التقريبي الجاف المباشر، لبعد أكثر فنية وشموخا وجمالية، تضع المتلقي أسيرا لهذا الجمال.

¹⁷. المرجع نفسه. ص: 461.

وقد سبق وأشرت إلى أن سيرل كان من الذين ميزوا بين المعاني المباشرة وغير المباشرة أي الحرفية والاستلزام، ونجد لهذا حضورا واضحا عند القزويني، وفيما يأتي جرد للمواضع التي تثبت وعي البلاغيين القدماء بالدلالة المستلزمة التي تحملها تعابير اللغة.

يقول: "ومنها ما استعمل في ضد معناه أو نقيضه بتنزيل التضاد أو التناقض منزلة التناسب، بوساطة تهكم أو تلميح على ما سبق في التشبيه، كقوله تعالى: "فبشرهم بعذاب أليم" الأنعام/ 122 ويخص هذا النوع باسم التهكمية أو التلميحية".¹⁸

ففعل بشرهم دل على نقيضه بقرينة ارتباطه بالعذاب الأليم، والتبشير لا يكون إلا بخير. ويذكر هذا أيضا في قوله تعالى: "إنك لأنت الحليم الرشيد" هود/ 87 فالحليم الرشيد جاء بدلا عن السفية الغوي.¹⁹ وهو ما قاله أصحاب مدين لنبي الله شعيب عليه السلام حين أمرهم بالصلاة والزكاة فقالوا: "قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۗ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ" هود/ 87.

ومن ذلك أيضا حديثه الجميل عن قول الله تعالى "فأذاقها الله لباس الجوع والخوف" النحل/ 112، حيث نكر كل دلالات الكلمات التي وظفت فيها، وبين معانيها المضمنة الخفية التي لا يصل إليها إلا أصحاب النهي، والتي تثبت جلال وجمال الخطاب القرآني، يقول: "حيث قال: أذاقها ولم يقل كساها فإن المراد بالإذاعة إصابتهم بما استعير له اللباس، كأنه قال: فأصابها الله بلباس الجوع والخوف.

قال الزمخشري: الإذاعة جرت عندهم مجرى الحقيقة، لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمس الناس منها، فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر، وأذاقه العذاب، شبه ما يدرك من أثر الضر والألم بما يدرك من طعم المر والبشع.

¹⁸ القزويني. الإيضاح. ص: 440.

¹⁹ المرجع نفسه. 450.

فإن قيل: الترشيح أبلغ من التجريد، فهلا قيل: فكساها الله لباس الجوع والخوف، قلنا، لأن الإدراك بالذوق يستلزم الإدراك باللمس من غير عكس، فكان في الإذاقة إشعار بشدة الإصابة، بخلاف الكسوة.

فإن قيل: لم لم يقل: فأذاقها الله طعم الجوع والخوف؟ قلنا: لأن الطعم وإن لاعم الإذاقة، فهو مفوت لما يفيد لفظ اللباس من بيان أن الجوع والخوف عم أثرهما جميع البدن عموم الملابس".²⁰

ومنه أيضا حديثه عن قوله تعالى: "ولما سكت عن موسى الغضب" الأعراف/ 154، وحديثه عن كل المعاني التي يتضمنها فعل سكت، والتي تدل على ما ذكره القزويني على لسان الزمخشري، يقول: "كأن الغضب كان يغيره على ما فعل، ويقول له: قل لقومك كذا، وألق الألواح، وجر برأس أخيك إليك، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء..."²¹.

تحضر أيضا مبادئ غرايس بشكل أو بآخر في ثنايا هذا الكتاب من خلال بعض الإشارات المنتثرة في باب المجاز هنا وهناك، وسأحاول تصنيفها بحسب المبادئ الأربعة لغرايس: الكم والكيف والملاءمة والطريقة. - مبدأ الكم: يحضر بشكل خفي حين يتحدث القزويني عن الحذف، وكيف أنه يأتي مناسباً للمقام، فلا يقال في العبارة إلا ما يفيد دون زيادة ولا نقصان، ومن ذلك حديثه عن الحذف في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم "أسرعن لحوقاً بي أطولكن يدا" فالقزويني يشير إلى حذف كلمة العطاء للعلم بها²².

ومما يدخل في هذا المبدأ حديث القزويني عن قوله تعالى: "لمن كان له قلب" ق/ 38، يقول: "فكان في قوله تعالى "لمن كان له قلب" تخييل أن من لم ينتفع بقلبه كالعادم للقلب جملة، بخلاف نحو قولنا: لمن كان له قلب ناظر فيما ينبغي أن ينظر فيه، واع لما يجب وعيه

20. القزويني. الإيضاح. ص: 454/453.

21. المرجع نفسه. 459.

22. المرجع نفسه. ص: 418.

وفي نظم الآية فائدة أخرى شريفة، وهي تقليل اللفظ مع تكثير المعنى²³.

والشاهد هو العبارة الأخيرة التي تحدث فيها عن تقليل اللفظ الذي يحمل المعاني الكثيرة، فإذا كان اللفظ حمالاً لدلالات كثيرة فمن البلاغة عدم إكثار الكلام، وهذا لا ينسحب على هذه الآية فقط، وإنما هو سمة مميزة للإعجاز الذي يشمل كلام الله عز وجل كله.

ومنه أيضاً رد القزويني على السكاكي في الحد الذي وضعه للمجاز اللغوي والذي عرفه بقوله: "الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق استعمالاً في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها، مع قرينة مانعة عن إيراد معناها في ذلك النوع"، يقول القزويني معلقاً على هذا التعريف: "وفيها نظر، لأن لفظ الوضع، وما يشتق منه، إذا أطلق لا يفهم منه الوضع بالتحقيق، لما سبق من تفسير الوضع، فلا حاجة إلى تقييد الوضع في تعريف الحقيقة بعدم التأويل وفي تعريف المجاز بالتحقيق، اللهم إلا أن يراد زيادة البيان، لا تتميم الحد"²⁴.

إن القزويني يرفض كثرة العبارات والألفاظ التي لا تضيف شيئاً، فهو يدعو إلى أن تكون العبارة على قدر المعنى الذي نريد التعبير عنه، وإذا كان الإيجاز أبلغ فما الداعي للإطناب؟ والمجاز نفسه وخاصة الاستعارة نفسها مرتبطة بمبدأ الكم، فالانزياح عن الدلالة الحرفية إلى دلالة مستلزمة غير حرفية، يعني البعد عن اللغة التقريرية الإخبارية التي تتطلب كما أكبر أكثر من التعبير من الاستعارة التي تعتمد على الإشارة إلى المعنى بالقليل من اللفظ.

– مبدأ الملاءمة: حين تحدث القزويني عن المقامات المختلفة التي تفرض مقالات مختلفة، ومن ذلك حديثه عن تقسيم الاستعارة باعتبار الجامع إلى عامية مبتذلة ميسر فهمها لعامة الناس نظراً لظهور الجامع فيها، وخاصية غريبة لا يظفر بها إلا من ارتفع عن طبقة العامة، وذكر القزويني لاختلاف

²³. القزويني. الإيضاح. ص: 461.

²⁴. القزويني. الإيضاح. ص: 467/466.

مقام الاستعارات إشارة خفية إلى وجوب مراعاة المتكلم للمتلقي هل ينتمي لصنف العامة أم الخاصة، إذ ليس من البلاغة في شيء أن نخاطب الآخر خطاباً على خلاف قدر عقله وفهمه.

أيضاً تحدث القزويني عن أن بعض المقامات قد يستساغ فيها ما لا يستساغ في غيرها لأن سياق العبارة كله يعضد معنى ما، ومتى ما انتفى هذا السياق اللغوي أضحى اعتماد اللفظ عارياً عن الصواب، يقول:

"وكذلك قول الشماخ:

إذا ما راية رفعت لمجد

تلقاها عرابة باليمين

الشبه فيه مأخوذ من مجموع التلقي واليمين، على حد قولهم: تلقيته بكلتا اليدين، ولهذا لا تصلح حيث يقصد التجوز فيها وحدها، فلا يقال: هو عظيم اليمين، بمعنى عظيم القدرة ولا عرفت يمينك على هذا بمعنى عرفت قدرتك عليه²⁵.

فكلمة اليمين جاءت مقبولة هنا بسبب السياق اللغوي الذي وردت فيه، حيث ارتبطت بكلمة تلقاها، ومتى ما انتفى هذا السياق اللغوي انتفت الملاءمة عن هذه الكلمة، ولذلك لا يجوز اتخاذها استعارة لوحدها.

– مبدأ الطريقة: يعني هذا المبدأ عند غرايس البعد عن الغموض ومخاطبة الناس على قدر عقولهم، وهو نفس المبدأ الذي تقوم عليه البلاغة العربية مجتمعة بكل علومها، بدءاً برعاية السياق بنوعيه اللغوي وغير اللغوي، وأطراف الخطاب، المتكلم والمتلقي، وهو ما حاولت الكشف عنه فيما مر ذكره.

يظهر هذا المبدأ أيضاً حسب فهمي في حديث القزويني عن شروط حسن الاستعارة، حين تحدث عن ضرورة مراعاة أن يكون الجامع بين المستعار منه والمستعار له جلياً واضحاً.

25 . القزويني. الإيضاح. ص: 460.

يقول: "وهي في كل من التحقيقة والتمثيل: رعاية ما سبق ذكره من جهات حسن التشبيه، وأن لا يشم من جهة اللفظ رائحته، ولذلك يوصى فيه أن يكون الشبه بين طرفيها جليا بنفسه أو عرف أو غيره، وإلا صار تعمية وإلغازا، لا استعارة وتمثيلا، كما قيل: رأيت أسدا وأريد إنسان أبخر، وكما إذا قيل: رأيت إبلا مائة لا تجد فيها راحلة، وأريد الناس، أو قيل: رأيت عودا مستقيما أوان الغرس، وأريد مؤدب في صباه، وبهذا ظهر أنهما لا يجيئان في كل ما يجيء فيه التشبيه"²⁶.

إن القزويني يركز على ضرورة أن يكون الجامع معروفا ظاهرا، بعيدا عن الإلغاز والتعمية، سواء كان ظهوره معتمدا على وضوح اللفظ نفسه، أو بحسب انتشاره حتى يصير عرفا، أو بحسب السياق اللغوي الذي يرد فيه، كل هذا حتى لا يختل الهدف الأول من البلاغة ألا وهو التبليغ.

خاتمة

إننا نجد أنفسنا أمام مادة علمية ضخمة قدمها علماؤنا، تحتاج فقط إلى حسن نظر وفهم. يقول د. عبد الرحمن بودرع: "وقد ألف العلماء المصادر الكثيرة في دراسة معجم العربية ونحوها وإعرابها وصرفها وأصواتها وبلاغتها... ولكنها بلغت من الدقة في المنهج والعمق في النظر والتفصيل في البحث ما جعلها قابلة لأن تقف في مصاف اللغويات العالمية اليوم وأن تقارن بكثير من النظريات اللسانية الحديثة"²⁷. إن هذا البحث محاولة للاستفادة من النظريات اللسانية الحديثة والبحث عن أصولها في تراثنا البلاغي الثري والعميق في الآن نفسه، وهو محاولة أيضا لإثبات مدى استعاب البلاغة القديمة لمفاهيم تداولية تأويلية كثيرة ولدت في رحم النظريات الفلسفية..

²⁶ القزويني. الإيضاح. ص: 472/473.

²⁷ في اللسانيات واللغة العربية. عبد الرحمن بودرع. دار كنوز المعرفة - الطبعة الأولى. س: 1437هـ/ 2016 م - ص: 17.

المصادر والمراجع:

1. الخطيب القزويني:
 - التلخيص في علوم البلاغة . ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي.
 - الإيضاح في علوم البلاغة . تحقيق: عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف . الطبعة السادسة . سنة النشر: 1999م . دار الكتاب المصري.
2. ذهبية حمو الحاج . التداولية واستراتيجية التواصل . رؤية النشر والتوزيع . الطبعة الأولى . سنة النشر: 2015م.
3. عبد الرحمن بودرع:
 - في اللسانيات واللغة العربية . دار كنوز المعرفة . الطبعة الأولى . سنة النشر: 2016م.
 - النص الذي نحيا به . منشورات جامعة عبد المالك السعدي . الطبعة الأولى . سنة النشر: 2008م.
4. محمد العمري . البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول . دار إفريقيا الشرق . سنة النشر: 2005م.
5. مليكة حفان . نظرية التلقي في التراث البلاغي العربي . مجلة الإحياء . الرابطة المحمدية للعلماء.